المقطع الخامس

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (البقرة: 168 - 169)}

"التفسير التحليلي"

قال ابن كثير	{لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ، شَرَعَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ الرزاق لجميع خلقه، فذكر فِي مَقَامِ الِامْتِنَانِ أَنَّهُ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا مِنَ اللَّهِ طَيِّبًا، أَيْ مُسْتَطَابًا فِي نَفْسِهِ غَيْرَ ضَارٍّ لِلْأَبْدَانِ وَلَا لِلْعُقُولِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَهِيَ طَرَائِقُهُ وَمَسَالِكُهُ فِيمَا أَضَلَّ أَتْبَاعَهُ فِيهِ مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحَائِرِ والسوائب والوصائل ونحوها، مما كان زَيَّنَهُ لَهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، كَمَا فِي حَدِيثِ عياض بن حماد الذي في صحيح مُسْلِمٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ كل مال منحته عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ- وَفِيهِ- وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»}. **تعقيب:** هذا الكلام الذي يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هو ما يعرف بالمناسبة بين الآية وبين الآية التي قبلها .
يَا أَيُّهَا النَّاسُ	الغالب في السور المدنية أن يكون الخطاب فيها بـ {يا أيها الذين آمنوا} [البقرة: 104] ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة صارت المدينة بلاد إسلام لكنها يخرج منها بعض المسائل؛ لأن من السور المدنية فيها {يا أيها الناس} كسورة النساء، وسورة الحجرات.
كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً	أي كلوا من هذا ما شئتم؛ ويشمل كل ما في الأرض من أشجار، وزروع، وبقول، وغيرها؛ ومن حيوان أيضاً؛ لأنه في الأرض. {حلالًا} : أي كلوه حال كونه حلالاً - أي محللاً -؛سُمي (حلالًا) لانحلال عقدة الحظر عنه.

طَيِّباً	« **طَيِّباً** » ما كان طيباً في ذاته؛ لقول الله سبحانه وتعالى: {وأحل الله البيع} [البقرة: 275] ، وقوله تعالى في الميتة، ولحم الخنزير: {فإنه رجس} إظهار منة الله على عباده، حيث أباح لهم جميع ما في الأرض من حلال طيب؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ تُلَيَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً} فَقَامَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ «يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ، تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ». وهذا الحديث يبين أن من عقوبات أكل الحرام منع استجابة الدعاء كما في حديث الرجل الذي كان يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له".
وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ	« **خُطُوَاتِ** »جمع خُطوة، والخطوة تقال بالفتح خَطوة، وتقال بالضم خُطوة، و { **خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**} أي اتباع مسالكه وطرائقه، وما يزينه للناس، ويمليه لهم، فيكون متبعًا له، مطيعًا له وهو شامل للشرك فما دونه؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء، والمنكر؛ قال تعالى: {إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على ما لا تعلمون} فكل شيء حرمه الله فهو من خطوات الشيطان سواء كان عن استكبار، أو تكذيب، أو استهزاء، أو غير ذلك؛ لأنه يأمر به، وينادي به، ويدعو إليه؛ و {الشيطان} من: شطن؛ ومعناها بعُد؛ فسمي الشيطان بذلك لبعده عن رحمة الله عز وجل. قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ: كُلُّ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ فَهِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: هِيَ النُّذُورُ فِي الْمَعَاصِي وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ ابْنَهُ، فَأَفْتَاهُ مَسْرُوقٌ بِذَبْحِ كَبْشٍ، وَقَالَ: هَذَا مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ. وَقَالَ أَبُو الضُّحَى عَنْ مَسْرُوقٍ أَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ بِضَرْعٍ وَمِلْحٍ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ فَاعْتَزَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: نَاوِلُوا

	صَاحِبَكُمْ، فَقَالَ: لَا أُرِيدُهُ، فَقَالَ: أَصَائِمٌ أَنْتَ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: حَرَّمْتُ أَنْ آكُلَ ضَرْعًا أَبَدًا، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هَذَا مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، فَاطْعَمْ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا كَانَ مِنْ يَمِينٍ أَوْ نَذْرٍ فِي غَضَبٍ، فَهُوَ مِنْ خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. **من صور اتباع خطوات الشيطان:** • الأكل بالشمال، والشرب بالشمال؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله». • القياس الفاسد؛ لأن أول من قاس قياساً فاسداً هو إبليس؛ لأن الله لما أمره بالسجود لآدم عارض هذا الأمر بقياس فاسد: قال: {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} [ص: 38] • الحسد؛ لأن الشيطان إنما قال ذلك حسداً لآدم؛ وهو أيضاً دأب اليهود، كما قال تعالى: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم} [البقرة: 109] ؛ وكل خُلق ذميم، أو عمل سوء، فإنه من خطوات الشيطان.
	{ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**} ؛ محل هذه الجملة استئنافية تعليل لما قبلها؛ والعدو ضد الصديق؛ وضد الولي؛ لقوله تعالى: {لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} ؛ وقد حده الفقهاء - رحمهم الله - بقولهم: من سره مساءة شخص؛ أو غمه فرحه فهو عدو؛ فالعدو من يحزن لفرحك، ويُسَرّ لحزنك {مبين} أي ظاهر العداوة؛ وقد كان عدواً لأبينا آدم صلى الله عليه وسلم؛ فأبى السجود له، وأغراه حتى أخرجه من الجنة، وأكل من الشجرة، فما زالت عداوته إلى قيام الساعة؛ وقال تعالى عنه: {لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنَّهم ولأمنينَّهم ولآمرنَّهم فليبتكنَّ آذان الأنعام ولآمرنَّهم فليغيرنَّ خلق الله} [النساء: 118، 119] ، ثم قال تعالى: {ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خساناً مبيناً} [النساء: 119] .
إِنَّمَا	أداة حصر؛ أي أنه لا يأمركم إلا بهذا
يَأْمُرُكُمْ	أي الشيطان؛ والخطاب للناس جميعاً؛ لأن الآيات كلها سياقها للناس.

بِالسُّوءِ	أي كل ما يسوء من المعاصي الصغيرة؛ وسميت بذلك أنها تسيء إلى صاحبها بسوء العاقبة التي يلقاه ويصير إليها وتسوء صاحبها اذا وجدها في صحيفة الأعمال.
وَالْفَحْشَاءِ	هي لون من السوء، فيكون ذلك من قبيل عطف الخاص على العام، ولكن الفحشاء نوع منه أعظم، أي المعاصي الكبيرة، كالزنا **قال مقاتل:** إن كل ما ورد في القرءان من ذكر الفحشاء فإن معناه الزنى، إلا قوله: "الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء" فإنه منع الزكاة. لذا قال ابن عباس: السوء ما ليس فيه حد ، والفحشاء ما فيه حد.
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ	معطوف على قوله تعالى: {بالسوء} يعني أن الشيطان يأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون. **قال ابن كثير:** { إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } أَيْ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ عَدُوُّكُمُ الشَّيْطَانُ بِالْأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ، وَأَغْلَظُ مِنْهَا الْفَاحِشَةُ كَالزِّنَا وَنَحْوَهُ، وَأَغْلَظُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، فَيَدْخُلُ فِي هذا كل كافر وكل مبتدع أيضا}. **تعقيب:** ما فسره ابن كثير للآية يبن أنها ابتدأت بالذنوب متسلسلة من الأصغر إلى الأكبر، فبدأت بالسوء هو المعاصي ثم ثنت بالفحشاء وهي الكبائر، ثم القول على الله بلا علم فيدخل فيه البدع والكفر.

الفوائد المستنبطة

فوائد تدبرية

الخطوات هي مبدأ كل عمل، وهي الخواطر والأفكار التي تتحول إلى إرادة وعزيمة، ثم بعد ذلك مع التكرار تتحول إلى عادة .
والشيطان يُدرج الإنسان بالمُنكر خطوة خطوة؛ حتى تألف النفس ذلك، ثم ينقله إلى ما فوقه، ويرقيه إلى أن يصل إلى أمور عظيمة، وقد يخرج من رِبقة الدين، وما كان يظن بحال من الأحوال في يوم من دهره أنه سيتحول إلى ذلك.

فالشيطان يأمر بالصغائر مع أن المعاصي الصغار تقع مكفّرة بالأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر؛ لكنه يأمر بها؛ لأنه إذا فعلها الإنسان مرة بعد أخرى فإنه يفسق، ويقسو قلبه؛ ثم لا ندري أتقوى هذه الأعمال الصالحة على تكفير السيئات، أم يكون فيها خلل، ونقص يمنع من تكفيرها السيئات.
بالمثال يتضح المقال: الإنسان الذي يتعاطى الفواحش ربما لم يبدأ بهذا لكن كانت البداية نظرة محرمة أو صورة عارية، تُغري النفس بالرذيلة، ثم بعد ذلك تبدأ النفس تتطلع وتجتر هذه المشاهد والصور، ثم بعد ذلك يكون ذلك إرادة لها، ثم يتحول ويترجم إلى عزيمة، ثم بعد ذلك يكون فعلاً في الخارج، وقد يكون ذلك بتدريج من نوع آخر بتأويلات فاسدة يُزينها الشيطان لمن عنده شيء من الورع، والشيطان يأتي لكل أحد من الناس بالطريق التي تصلح لمثله.
ويذكر في الإسرائيليات من باب الإستئناس: أن أربعة من بني إسرائيل اكتتبوا في غزوة، وهم إخوة، وكانت لهم أخت فتفكروا كيف يصنعون بها، فاهتدوا إلى راهب في دير، أو في صومعة، فقالوا: قد اكتتبنا في غزوة كذا، وكانوا يُطيلون الغياب في مغازيهم، ويبقون السنة وأكثر من ذلك، وهذه أختنا ليس لها أحد، نريد أن نضعها أمانة عندك حتى نرجع، فأبى وامتنع، فقالوا: نبني لها صومعة قريبًا من صومعتك.
فقال: شأنكم، فبنوا لها صومعة، وجعلوها في هذه الصومعة، فكان هذا الرجل في صومعته لا يخرج منها، ثم يضع الطعام عند باب صومعته من الخارج، ويُغلق الباب، فتأتي هذه المرأة، وتأخذ الطعام، وترجع إلى صومعتها.
ثم جاءه الشيطان، فقال: هذه عورة وأنت مؤتمن عليها، وأنت أولى بالخروج منها، فهلاّ وضعت الطعام عند باب صومعتها؛ لئلا تخرج، فتكون عُرضة للآفات، فصار يضع الطعام عند باب صومعتها، ثم ينصرف، ثم تفتح الباب وتأخذ هذا الطعام، فجاءه الشيطان فقال: لو أنك حادثتها من وراء الباب، حتى تأنس بصوتك، فهي لم تألف الانفراد، وهي امرأة ضعيفة.
فجعل يجلس خلف الباب، والباب مُغلق، فيُحدث ويُذكر ويعظ، من باب أنه يُدخل عليها شيء من الأُنس والنفع والفائدة، ثم بعد ذلك جاءه الشيطان وقال: لو أنك جلست إلى الباب من الداخل تراك وتأنس برؤيتك، فإنها لم تألف الانقطاع، فتستوحش بعدم رؤية الناس، فصار يجلس داخل الصومعة قريبًا من الباب لتراه ويتحدث، فما زال الشيطان به حتى وقع بها، فحملت، ثم بعد ذلك ولدت، فقتل هذا المولود.
ثم جاءه الشيطان وقال له: أنت الآن تفتضح ويفتضح من وراءك ممن يمثلون

الدين، فقتلها ودفنها، فلما جاء إخوتها سألوا عنها، فأثنى عليها خيرًا، ثم قال: هذه بنت نِعم المرأة، صالحة، وقد أصابها مرض شديد، ثم ماتت، وأشار إلى ناحية عند شجرة، وقال: هذا قبرها، فشكروه، ودعوا له، وانصرفوا، فأصبحوا وقد تغيرت نفوسهم ذات يوم، فقال أحدهم: والله لقد رأيت شيئًا لا أدري ما هو، فسألوه عنه فأبى، أن يذكره، فقال الآخر: والله أنا لقد رأيت شيئًا لا أدري ما هو، والثالث والرابع، كلهم قالوا مثل ذلك، فتحدثوا به، وإذا بالخبر بحالٍ من التطابق، فالرؤيا كانت واحدة، فقالوا: ما هذا إلا لشيء، فذهبوا إلى سلطانهم، وأخبروه فجيء بهذا الراهب، ثم بعد ذلك ابتلي وامتحن، فاعترف، ودلهم على قبرها الحقيقي، وأنه قتلها وقتل هذا الغُلام.

ثم جاءه الشيطان، فقال له: أنا صاحبك الذي أوقعك في هذا كله، والآن لا يكون ذلك عليك، وإنما يكون على الدين وحملته، فاسجد لي سجدة واحدة أُخلصك مما أنت فيه، فسجد الرجل، فكانت نفسه فيها، فهذه القصة فيها عبرة، وتُمثل هذا النوع من الاستدراج لدى ذوي الورع، كيف يأتيه من باب الورع، فما يزال به حتى يوقعه في الأمر المكروه.

فوائد فقهية

الأصل فيما في الأرض الحل والطيب حتى يتبين أنه حرام.

الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لقوله تعالى: {يا أيها الناس} ؛ وهم داخلون في هذا الخطاب؛ولكن ليس معنى خطابهم بها أنهم ملزمون بها في حال الكفر؛وليس معنى كونهم مخاطبين بها أنهم يؤمرون بقضائها؛ والدليل على عدم الزامهم قوله تعالى: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} [التوبة: 54] ؛ فكيف نلزمهم بأمر لا ينفعهم؛ هذا عبث، وظلم؛ وأما الدليل على عدم أمرهم بقضائها فقوله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} [الأنفال: 38] ؛ ولهذا لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أحداً ممن أسلم بقضاء ما فاته من الواجبات حال كفره؛ والفائدة من قولنا: إنهم مخاطبون بها - كما قال أهل العلم - زيادة عقوبتهم في الآخرة؛ وهذا يدل عليه قوله تعالى: (إلا أصحاب اليمين* في جنات يتساءلون* عن المجرمين* ما

سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين* ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين* وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين} [المدثر: 39 ــ 47] .

تحريم الفتوى بلا علم؛ وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: 33] .

القول على الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قاله؛ هذا جائز؛ ويصل إلى حد الوجوب إذا دعت الحاجة إليه.
- القسم الثاني: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه؛ فهذا حرام؛ وهذا أشد الأقسام لما فيه من محادة الله.
- القسم الثالث: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله؛ وهذا حرام أيضاً.

فوائد عقدية

{وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} يشمل القول على الله بلا علم في:

أولًا: ذاته، وذلك كما في قول الأشاعرة والماتريدية: أنهم نفوا أن الله في العلو وقالوا أنه سبحانه وتعالى ليس في جهة فهو ليس بداخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا فوق العالم، ولا تحت؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم.

ثانيًا: أسمائه، كقول المعتزلة: إن أسماء الله سبحانه وتعالى أعلام مجردة لا تحمل معاني، ولا صفات: فهو سميع بلا سمع؛ وبصير بلا بصر؛ وعليم بلا علم.

ثالثا: صفات الله مثل الأشاعرة الذين يثبتوا بعض الصفات دون بعض،

ويؤولون ما نفوه فنفوا الإستواء وقالوا هو الاستيلاء؛ فقالوا على الله بلا علم من وجهين:
الوجه الأول: أنهم نفوا ما أراد الله بلا علم، فنفوا حقيقة الإستواء وهو الارتفاع والعلو.
والثاني: أثبتوا ما لم يعلموا أن الله أراده؛ وهو الإستيلاء.
رابعًا: أفعاله، مثل أن يثبتوا أسباباً لم يجعلها الله أسباباً، كمثل المنجمين، والخرَّاصين، وشبههم.
خامسًا: أحكامه؛ كالتحليل والتحريم فيحلون أشياء ويحرمون أشياء وينسبون ذلك إلى الله، قال تعالى: {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيب فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائهم}.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (البقرة: 170-171)}

"التفسير التحليلي"

سبب النزول	عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. وهذا السند لابن عباس تكلم العلماء فيه فبعضهم قال فيه محمد بن أبي محمد وهو مجهول.
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ	{ما} اسم موصول يفيد العموم، فتشمل جميع ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة. **العطف في "وإذا" عائد على أحد أمرين:** **الأول:** يحتمل أن يرجع إلى قوله -تبارك وتعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ] سورة البقرة:165] ... الآية ، والمعنى إذا قيل لهؤلاء الذين اتخذوا الأنداد من دون الله يحبونهم كحبه **الثاني:** أن يكون عائدًا إلى ما ذُكر من الناس في الآية التي قبلها، وهي قوله -تبارك وتعالى :يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلًا طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ] سورة البقرة:168[،{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا] سورة البقرة:170] فعلى هذا يكون من قبيل الالتفات .والمقصود بالالتفات: أن يرد التنويع فيها باستعمال الضمائر وهنا تحوّل من خطاب المخاطب إلى الغائب، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري، والأصل أنها تعود على أقرب مذكور، وإن كانت الآية تحتمل الوجهين، وللإلتفات فوائد: منها: تنشيط

	السامع. والذين حملوها على قوله : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَادًا] سورة البقرة:165] كأنهم استشكلوا كيف يكون ذلك عائدًا إلى الناس قبله من قوله :يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ] سورة البقرة:168] وليس كل الناس إذا قيل لهم :اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا] سورة البقرة:170]؟ وهذا ليس فيه إشكال والله أعلم؛ لأن المخاطب بذلك هم الناس وليس أهل الإيمان، والناس في أغلبهم على هذه الحال، خاطبهم القرآن، وخاطبهم النبي فأبى أكثر الناس إلا كفورًا، وكان اعتلالهم كثيرًا باتباع الآباء والأجداد وتقليدهم، والتمسك بما ألفوا عليه آباءهم، والله أعلم.
قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا	{بل} هذه للإضراب الإبطالي؛ يعني: قالوا مبطلين هذا القول الذي قيل لهم: {بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا} ؛ {ما} اسم موصول يفيد العموم؛ {ألفينا} أي وجدنا، و {آباءنا} يشمل الأدنى منهم، والأبعد؛ والمعنى: أي ما وجدناهم عليه من العقيدة والعمل، حقاً كان أو باطلاً؛ وجوابهم هذا باطل خطأ؛ ولهذا أبطله الله تعالى.
أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ	أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم في هذه الحال التي لا يستحقون أن يُتَّبعوا فيها لا يعقلون شيئاً؛ والمراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لا عقل الإدراك؛ فآباؤهم أذكياء، ويدركون ما ينفعهم، وما يضرهم؛ لكن ليس عندهم عقل رشد - وهو حسن تصرف -. {شيئاً} نكرة في سياق النفي؛ والنكرة في سياق النفي للعموم؛ وهذا العموم يراد به الخصوص وهو أمور الدين والآخرة لأن المقام هنا مقام منهاج، وعمل. {ولا يهتدون} أي لا يعملون عمل العالم المهتدي؛ وبهذا انتفى عنهم الرشد في العمل؛ والعلم في طريق العمل وهؤلاء الذين بهذا الوصف لا يعقلون ولا يهتدون لا يستحقون أن يتبعوا؛ ولهذا جاءت همزة الإنكار في قوله تعالى (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) ومثل لهم مثال في الآية

	التي تليها.
وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً	هؤلاء الكفار مثلهم ـــ في كونهم يتبعون آباءهم بدون أن يفهموا هذه الحال التي عليها آباؤهم ـــ كمثل هذا الناعق بالماشية التي لا تسمع إلا دعاءً، ونداءً ولاتفهم ما يقول؛ و «الدعاء» إذا كان يدعو شيئاً معيناً باسمه؛ و «النداء» يكون للعموم.
قال ابن كثير	وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاتْرُكُوا مَا أنتم عليه مِنَ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ، قَالُوا فِي جَوَابِ ذَلِكَ: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا، أَيْ وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَيْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ: أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ أَيِ الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ وَيَقْتَفُونَ أَثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ أَيْ لَيْسَ لَهُمْ فَهْمٌ وَلَا هِدَايَةٌ. ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ تَعَالَى مَثَلًا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ [النَّحْلِ:60] فَقَالَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْجَهْلِ كَالدَّوَابِّ السَّارِحَةِ التِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا بَلْ إِذَا نَعَقَ بها راعيا، أَيْ دَعَاهَا إِلَى مَا يُرْشِدُهَا لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطْ. وَقِيلَ: إِنَّمَا هَذَا مَثَلٌ ضُرِبَ لَهُمْ فِي دُعَائِهِمُ الْأَصْنَامَ التِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ ولا تعقل شيئا واختاره ابْنُ جَرِيرٍ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، لِأَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا وَلَا تَعْقِلُهُ وَلَا تُبْصِرُهُ وَلَا بَطْشَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا. **تعقيب :** هذه الآية فسرها العلماء بأكثر من وجه: الأول: اختار ابن كثير -رحمه الله- أن يكون هذا المثل مضروبًا في الداعي الذي يدعو من لا يستجيب ولا يرعوي؟، فيكون الذي لايسمع الا دعاءا ونداء هم الكفار الذين يتبعون آباءهم. الثاني: اختار ابن جرير الطبري ان المقصود بها حال الكفار وخاصة اليهود الذين لا ينتفعون من هذه الدعوة، ولا تنفتح قلوبهم، فيكون المعنى ومثل الذين كفروا حينما يدعون آلهتهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء" فيكون

	الذي لايسمع الا دعاءا ونداءا هي الأصنام والآلهة التي تعبد من دون الله. هذا القول وإن قال به جماعة من السلف والخلف لكنه لا يخلو من إشكال، وذلك أن الله قال :كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء] سورة البقرة:171] ، الأصنام لا تسمع دعاءً ولا نداءً فضلًا عن أن تنتفع، لكن البهائم تسمع الدعاء والنداء، فهذا يرجح القول الأول، ولهذا قال :صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ] سورة البقرة:171] والله أعلم. الثالث: هي في الداعي والمدعو، يعني هي تصور حال هؤلاء الكفار وحال من يدعوهم.
صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ	{صم} جمع أصم؛ وهو الذي لا يسمع؛ المعنى لايسمعون الحق فهم وإن سمعوا غيره فهو كالعدم الذي لافائدة منه؛ {بكم} جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ أي لاينطقون بالحق، ونطقهم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ و {عمي} جمع أعمى؛ وهو الذي لايبصر أي لا يبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به. {فهم لا يعقلون} أي لكونهم صماً بكماً عمياً فهم لا يعقلون عقل رشد ـــ وإن كان عندهم عقل إدراك ـــ؛ فلعدم انتفاعهم بعقولهم نفى الله عنهم العقل؛ ورتب الله انتفاء العقل عنهم على كونهم صماً بكماً عمياً؛ لأن هذه الحواس وسيلة العقل والإدراك. **قال ابن كثير:** وَقَوْلُهُ "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ" أَيْ صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بُكْمٌ لَا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ، عُمْيٌ عَنْ رُؤْيَةِ طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ أَيْ لَا يعلمون شيئا ولا يفهمونه. **تعقيب:** يعني حيث عطلت هذه الحواس وما في معناها فصارت كالعدم فصاروا (صم بكم عمي)، مع أن الله أثبت لهم أبصارًا، فقال :وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم] سورة الأحقاف:26] فإذا عطلها الإنسان صارت كالعدم، وبالتالي صح أن يطلق عليه أنه أصم وأبكم وأعمى.

الفوائد المستنبطة

فوائد تدبرية

التعبير هنا بالأمر بالاتباع؛ لأن مبنى ذلك على التسليم والانقياد، فالذي يتبع غيره يكون خلفه، تابعًا له، يقفو أثره، وهكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان مع الوحي في غاية التسليم والانقياد، فيكونون في حال من الاستجابة لا يحصل معها التمنع أو التردد {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا]سورة النور:51 [وهذه هي حقيقة الإسلام فهو الاستسلام الكامل لله -تبارك وتعالى- ظاهرًا وباطنًا، لا يكون في القلب أدنى اعتراض على تشريع الله في أحكامه الدينية، ولا على أقداره الكونية، وإنما هو الرضا والتسليم.

فوائد عقدية

إثبات صفة العلو لله -تبارك وتعالى؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل.

القرآن مُنزل من عند الله -تبارك وتعالى- وليس كما يقول الأشاعرة القرءان عبارة عن كلام الله، أي أن الله خلقه، وألقى المعنى في نفس محمد وعبّر عنه بأسلوبه وعبارته، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، فهذا كلام الله بألفاظه ومعانيه.

فوائد فقهية

من تعصب لمذهب مع مخالفة الدليل ففيه شبه من هؤلاء؛ والواجب أن الإنسان إذا قيل له: «اتبع ما أنزل الله» أن يقول: «سمعنا، وأطعنا» .
العبادات توقيفية: لا يجب الانقياد إلا لما أنزل الله ـــ وهو الكتاب، والحكمة ـــ. والقاعدة الأصولية: الأصل في العبادة المنع، إلا ما دل الدليل على الجواز.